المقدسات والمعبودات الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم

الأستاذ كيحل البشير، جامعة تيارت

ملخص:

لقد صاحبت الظاهرة الدينية الإنسان منذ مراحله الأولى ولعل أهم خاصية تميز بها هذا الأخير عن غيره من المخلوقات هي أنه كائن عاقل متدين، فمنذ توصله إلى إنتاج الأدوات الحجرية الأولى ترك لنا إلى جانب ذلك شواهد تنبئ عن وسطه الفكري والروحي، وفي مختلف مناطق العالم على تباين البيئات الطبيعية التي وجد فيها، محاولا التأمل في الظواهر الطبيعية والكونية المحيطة به، فاتجه فكره إلى بعض الآراء المتصلة هذا الجانب المعنوي الذي لم يكن عاطفة روحانية فحسب، بل حاجة ماسة شعر الإنسان بضرورتها بنفس درجة حاجياته الاقتصادية من أجل حمايته ومساعدته على تجاوز المخاوف والأخطار التي كانت هدد وجوده ، أو بحثا عن إجابات للأسئلة التي لا شك أن الكون المحيط به بظواهره وألغازه الكثيرة قد جعله يشعر بها ويفكر فيها ، فعملت كل مجموعة بشرية في سياق تطورها التاريخي على تجسيد تلك الحاجة وتكريس ذلك الاعتقاد بالشكل الذي يناسبها متأثّرة بالوسط البيئي الذي عاشت فيه وبتراكم تجاربها الذاتية أو بانفتاحها على التجارب الدينية لشعوب ومجموعات بشرية أخرى، ومن بين تلك الشعوب سكان بلاد المغرب القديم. وهكذا فإن هذه الدراسة ستتناول بالبحث الديانة الوثنية المغاربية في العصور القديمة منذ تجلياتها الأولى التي جسدتها البقايا الأثرية المكتشفة هنا وهناك والتي تفصح عن خبرة معنوية كانت في بداياتها غامضة وهي ترجع إلى العصر الحجري القديم الأوسط، ويمتد إطارها الزماني ليغطي الفترات التالية لها حتى سقوط قرطاجة في 146 ق .م.

أما الإطار الجغرافي لها فهو بلاد المغرب القديم الممتدة من الحدود الغربية لمصر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن البحر المتوسط شمالا إلى جنوب الأطلس الصحراوي جنوبا. ويأخذ المقال أهميته من أن نشأة تطور الفكر الديني يعتبر أحد أهم أشكال التعبير المعنوي عند الإنسان المغاربي القديم أبان من خلاله على تميز في التعاطي مع القوى التي شعر نحوها بالقداسة ومارس تجربته

الطقوسية الدينية الذاتية، كما انفتح على التجارب الطقوسية للشعوب التي تواصل معها أو احتك بها كالمصريين القدامى والفينيقيين والإغريق، أخذا وعطاء وتأثيرا وتأثرا، فمعرفة هذا الجانب المعنوي تمكّننا بالتكامل مع الجانب الاقتصادي والاجتماعي من تكوين صورة متكاملة عنه في تلك المرحلة المتقدمة من وجوده .

إذن مع مرور الزمن وصل التفكير الديني للمغاربي القديم الى مرحلة أكثر نُضجا وتطورا، فقد اتخذ من مظاهر الطبيعة آلهة، بعدما أمن بظاهرة حلول الأرواح فيها (Animisme)[1]، كما اتخذ من الأحجار والأشجار آلهة، وصنع منها أوثانا يقدسها ويتبرك بها في أفراحه وانتصاراته ويتوسل إليها اللطف والبركة في أحزانه ومآسيه.

كلمات مفتاحية: مغرب قديم، طوطمية، تقديس الطبيعة، آلهة مغاربية.

Abstract:
The religious human phenomenon generated since its early stages, and perhaps the most important feature distinguishes the latter from other creatures is that sane religious object, since his conception of the production of the first stone tools leave us besides evidence predictors for intellectual and middle and spiritual, and in the various regions the world of the natural environments found in contrast, trying to reflect on the natural phenomena and cosmic surrounding him, he veered idea to some opinions related to this mental side, which was not a passion spirituality, but also an urgent need human hair as indispensable the same degree of economic belongings in order to protect him and help him to overcome the fears and dangers that were threatening its existence, or in search of answers to questions that no doubt that the surrounding universe Bzawahrh and many Olgazh may make it feel them and think of them worked every human group in the context of the historical evolution of the embodiment of this need and dedicate it to believe a way that suits them influenced by the environmental center-aligned, who lived in it and the accumulation of self-tests or by opening to religious experiences of the peoples and other human groups, and among the inhabitants of the Maghreb peoples old. Thus, this study will address research pagan religion Maghreb in ancient times since the first manifestations embodied archaeological remains discovered here and there, which discloses a moral experience was in mysterious beginnings and is back to the old East Stone Age, and extends framework temporal to cover the following periods have until the fall of Carthage.

تقديس مظاهر الطبيعة: تشترك الطبائع البشرية منذ القديم في الرغبة للوصول إلى حل ألغاز هذا الكون وأسراره غير المرئية، فكلما اقترب الإنسان بعيشه من العالم الطبيعي اشتدت رغبته

في التواصل مع هذه القوى الخارقة التي تمتلك قوى وخصائص تفوق ما لدى البشر، قوة تقوده ولا تنقاد إليه، وبالتالي تجعله مربوطا بها[2]، وقد كانت المعتقدات الأولى في شمال إفريقيا تعكس نظرة السكان للكون والطبيعة بمختلف مكوناتهما الروحية[3]،كان للبيئة الجغرافية دور واضح في بلورة الفكر الديني للإنسان، من خلال إيحاءها بوجود آلهة عظيمة تسيطر على كل تلك التضاريس والظواهر، فمنذ العصور الحجرية الحديثة، أظهر أهالي إفريقيا الشمالية اهتماماً في الأمور الدينية العميقة والصعبة الإدراك[4]، وكسائر الناس الذين يقضون أغلب أوقاتهم في الحقول أو الغابات لابد وأن تكون قد روعتهم القوى الظاهرة في الطبيعة، تلك القوى العنيفة والهائجة التي لا يمكن مقاومتها وهي تكتسح الأشجار والصخور، كما افتتنوا أيضا بهياج البحر وقوة أمواجه وهي تضرب السواحل الصخرية .

والطبيعة أيضاً مليئة بالخوف والرعب، فهي تحمل لهم قوى الحياة والموت، فإذا لم يتساقط المطر يفسد الحصاد وتموت الغلة، وهذا يعني المجاعة وإذا ما تفشت الأمراض في قطعان الماشية سيترصد الموت الناس أنفسهم، إذ أنهم يعتمدون على هذه الماشية لتأمين معيشتهم، لذلك أرادوا الوصول معها إلى ائتلاف وتواد، فجنحت بهم خيالاتهم الواسعة الى تأليه المظاهر الكبرى في الكون، من جبال وكواكب ومغارات وظواهر مختلفة، وتقربوا إليها بما يروه مناسبا لذلك، وصار لهم نوعين من المقدسات، مقدسات يخافونها قدسوها حتى يتجنبوا ضررها، ومقدسات يحبونها قدسوها لتستمر في إسعادهم.

أ–تقديس الجبال:

تمثل الجبال –الى جانب الكهوف–العبادة الطبيعية الأولى بالمغرب القديم[5]، وقد بين الباحثون أن شكل الجبال العام هو الذي أضفى عليها صفة القداسة، خاصة مع ارتباطها في ذهن الإنسان القديم بالضخامة من جهة، وبالعلو الكبير من جهة أخرى، وهي في اعتقادهم صفات الاهية وجب احترامها.

وقد اختار الإنسان الجبال لإقامة مراسمه الطقوسية الأولى، وذلك لاعتبارات عديدة منها أن تلك القمم بعيدة عن الانسان والحيوان، وهي بذلك في منأى عن التدنيس، كما أن علوها يسمح في نظر ذلك الإنسان باقترابه من الهته الفلكية كالشمس والقمر[6]،كما اعتبرت الجبال وسيطا روحيا

بين الإنسان وإلهه لأنها تسهل عملية اتصال السكان المجاورين لها بالآلهة، فهي تلامس –السماء– المسكن الطبيعي لهذه الآلهة.

ومن الادلة القوية على أن الجبال كانت اماكن مقدسة يتعبد الانسان فيها، تلك الرسوم الصخرية التي وجدت في التاسيلي أزجر[7]، تمثل بعضها مشهدا لمجموعة كبيرة من النساء والأطفال والرجال متوجهين نحو منطقة مرتفعة مقدسة تعودوا على أداء طقوسهم فيها محملين بالقرابين[8].

وقد اعتبرت جبال الأطلس[9] اله يحلف به ومكانا للتعبد، كما انه أعتبر عمودا متصلا بالسماء مسكن الالهة [10]، فقد أشار بليني الكبير الى أن السكان عندما يمشون بمحاذاة أطلس (على الأرجح جبل طوبقال أعلى قمة في المغرب العربي) تستولي عليهم رهبة دينية وهم يرون قمته تخترق السماء متجهة نحو القمر[11].

بقي المغاربة القدماء ساكنوا المرتفعات والأرياف بعيدا عن التأثيرات الأجنبية الفينيقية والرومانية، لذلك فعبادة الجبال بقيت سائدة لفترات طويلة، فقد ذكر القديس اوغسطين (SaintAugustin) بأن السكان المحليين يقومون بارتقاء الجبل لأداء العبادة وقد بين ان ذلك يعني عندهم بأنهم أقرب للإله[12]،كما وجد علماء الاثار في بعض خلوات الجبال كجبل (بوقرنين) بقايا لمعابد رومانية كرست لخدمة وعبادة ساتورن، وبينوا أن هذه المعابد قد تكون بنيت على أنقاض معابد وثنية محلية، فعلى مسافة قريبة من مدينة سور الغزلان وجدت نقيشة لاتينية صغيرة احتوت دعاءا لعفريت الجبل باستوريانيس (Pastorianis)[13].

كان المغاربة القدماء ينشؤون الرموز والصور على حجارة أعالي جبال الأطلس الصحراوي وجبال الريف، وعلى صخور مشرئبه عالية وكأنها تراقب وتنذر وهي صور حفظت إلى اليوم وتعتبر من أهم مصادر معرفتنا للحياة الاجتماعية للسكان القدماء.

ب –تقديس الكهوف والمغارات:

كان للكهوف والمغارات عند كل الشعوب مقاما رفيعا بسبب ما يعتقدون من حلول الأرواح بها، حتى إن بعض الباحثين جعل للكهوف عبادة خاصة واعتبروها أماكن مقدسة لدى الإنسان القديم.

سبقت الإشارة الى أن الكهوف والمغارات الطبيعية كانت مكانا مخصصا للدفن، على اعتبار أن الكثير منها يصعب العيش فيها ولا تليق لسكن الإنسان،لذلك فقد شكلت مكانا آمنا لحفظ الجثث، ثم أدخلت عليها بعض التعديلات والتحسينات لتصبح هياكل للعبادة، كما هو الشأن في منطقة (شتال هويك) بتركيا التي وجدت بها بعض من رؤوس ابقار رُصفت بشكل متقن، وبجوارها تماثيل صغيرة لآلهة أنثى وبقايا عظام إنسان تعود إلى ما يقارب (11ألف سنة ق.م)[14] (الشكل1)، وقد اختيرت المغاور التي يصعب الوصول إليها حتى تكون مقدسات الإنسان في منأى عن التدنيس وبعضها لا يتم الوصول إليه بسهولة، فهي تشكل متاهات حقيقية وذلك يشبه ما عثر عليه في مغارتي نيوز (Niause) والأخوة الثلاثة (les trois frères) في فرنسا[15].

وقد قدَّس المغاربة القدماء الكهوف منذ أزمنة قديمة تعود إلى ما قبل التاريخ[16]، فقد عثر في كهفي الأروي والدببة على ضفاف واد الرمال بقسنطينة[17]، ومنطقة التاسيلي أزجر على كهوف تشبه في خصائصها كهوف أرويا، خاصة في منطقتي تين هناكتنوإن اتينان بالتاسيلي ازجر (يقع على بعد 200كلم من جانت)، أين تتواجد الرسوم في مكان مظلم ومعزول وذو مدخل ضيق يصعب الوصول اليه[18](أُنظرالصورة1)، وقد وجد المنقبون في هذا الموقع بقايا حيوانات مختلفة، اضافة الى عظام ستة جثث إنسانية تعود إلى الحضارة العاترية، وهو ما يدل على ممارسات جنائزية معينة تكون قد مورست بالموقع[19].

والكهوف أو الملاجئ الصخرية هي في اعتقادهم بوابات بين عالمهم الحقيقي الذين يعيشون فيه والعالم الاخر، لذا فهم يزينونها بالرسوم الصخرية[20]، كما انها تعتبر اماكن لإقامة مراسم احتفالية تكريما للآلهة،وذلك عن طريق رفع الايدي والنظر الى السماء كما تعتبر ايضا مكانا يهيأ لامتزاجٍ محسوسٍ مع الالهة[21]، وهذه الميزات تشبه الى حد كبير ما أشار اليه خزعل الماجدي عند وصفه للمعابد المصرية القديمة،فقد بين أن التمثال المقدس للإله لا يتم الوصول إليه إلا بعد اجتياز عدة بوابات مع ازدياد المكان ظلمة كلما توغلنا نحو الداخل، ولا يصل هذا المكان إلا الكهنة المخولون[22].

اكتشفت داخل هذه الكهوف بعض التماثيل الحيوانية وأخرى شبه إنسانية إضافة إلى بعض المواقد التي استعملت على الأرجح كمذبح للقاربين، وهو ما يدل على أنها كانت تستخدم كمعابد،ونذكر في ذلك أمثلة عن بعض المغارات والكهوف التي قدست بشمال إفريقيا، مثل مغارتي شرفاطة (Charfatta) والمكطة-El)(Maqtaقرب مدينة فاس بالمغرب الأقصى، والتي أكد الأثريون ممارسة سكانها القدماء لطقوس سحرية مرتبطة بالزراعة وطلب الإخصاب [23]،كما لاحظ بعض المؤرخين التشابه بين اسم الجبل المقدس (Giddaba) الذي ذكره القديس اوغسطين وبين النقش (Giddaba-Deoau) الذي عثر عليه في غار زامة (R'har-Zamma)بجبل شطابة قرب قسنطينة [24]، فالقديس اوغسطين يذكر أن بعض من عاصرهم اعتقدوا بأنهم يكونون أكثر قربا للآلهة عندما يغوصون في باطن الأرض[25]لذلك فقد طلب من أتباعه تدمير كل الأوثان التي وجدت داخل الكهوف أو بالقرب منها.

لم يرد لحد الآن دليل قاطع على وجود آلهة خاصة بالكهوف، لكن بعض الباحثين أوردوا أسماء لآلهة مثلت تقديس الكهوف والمغارات،كإيفري (Ifri) أو أفرو)(Ifru- وأفري في الأمازيغية يعني الكهف- الذي صوّر على هيئة رأس مشع في أحد الكهوف الواقعة بين الهرية والخروب،وباكاكس(Bacax)الذي كرست له مغارات كثيرة لعبادته ك(غار الجماعة)في جبل الطاية في ضواحي قالمة[26]، واعتقد المغاربة القدماء أن الاله باكاكس يختص في رعاية تنقلات قطعانهم في أعالي الجبال كما أنه يهتم برعاية وتسهيل المبادلات التجارية التي كانت تتم بين سكان الجبال وبين المستقرين بالسهول[27]،كما عثر على نقوش ليبية على شرفه في كهف بضواحي منطقة عنونة[28]، أذ تبين من النقوش التي اقيمت على رواق المغارة انها كانت مكانا مقدسا يطوف حوله السكان المحليون،وهو شأن أغلب المغارات والكهوف التي عثر عليها بقرب المدن القديمة،كسيرتا وميلة وسطيف[29]، والتي بينت استمرار هذا التقديس الى الفترة الرومانية [30]، وهو أمر يوضح تأصل تقديس الكهوف والمغارات لدى السكان القدماء، وإلى يومنا هذا توجد مدن عدةفي المغرب الكبير تحمل اسم أفري أوأفران كالمدينة المغربية الحاليةأفران وهوجمع كلمة أفري أي الكهوف.

ج – تقديس الحجارة: تعتبر ظاهرة تقديس الحجارة وتبجيلها ظاهرة عالمية، فقد اعتبرت الحجارة في ثقافات عديدة تمثيلا للقساوة والصلابة والقوةوالدوام، واعتقد الانسان البدائي القديم أنها قد تحتوي الحياة مثلها في ذلك مثل الحيوان والنبات،أولأنها سكنُ الارواح والالهة[31].

وتعتقد بعض الشعوب أن الحجارة الضخمة (الميغاليت-Mégalithes) تحمي جسد الميت من التآكل، ففي وسط الهند توجد قبيلة تضع عند قبور موتاها حجارة ضخمة قد تصل علو ثلاثة أمتار بغرض تثبيت روح الميت، وتصاحب عملية وضع الحجر احتفالات طقوسية لضمان أن تسكن الروح ذلك الحجر، وبهذه الطريقة يصبح الحجر مسكنا لأرواح الاموات[32].

وفي جنوب الهند تتوجه المتزوجات الجدد الى صخور الدولمن التي يسكنها الأجداد ليلصقوا أجسادهن عليها املين ضمان خصوبة أرحامهن، وأما في شمال افريقيا فقد نظر السكان القدماء إلى الصخور بشيء من القدسية والتأليه منذ عصور ما قبل التاريخ، فقد عثر في تبلبالة بالصحراء الجزائرية على حجارة نحتت في شكل وجه بيضاوي تختفي فيه المعالم أو أعضاء تناسلية[33] (أنظر الصور2)، ولا يستبعد أن تكون هذه الحجارة محل تقديس من طرف ساكني المنطقة، وهذه الحجارة عرفت باسم المنحوتات Bétyles* التي تعني "بيت الرب " التي عرفت عند العديد من الشعوب القديمة، وهي في شكل مستطيل عادة ما يضع عليها المرتادون الزيت أو الدُهن، وهي عادة تواصلت حتى العهد الروماني، فقد ذكر أرنوب(Arnobe) أنه قبل ان يعتنق المسيحية كان أذا عثر على حجر مصقول ومدهون بزيت الزيتون، تأكد أنه حجر مقدس وجب أن يجثو أمامه ويطلب منه حاجته[34]،كما أشار القديس أوغسطين أن الوثنيين في عهده من النوميديين عبدوا الابادير، والتي تعني" الحجارة المقدسة "[35].

كما توجد اشارة واضحة "للبتيل" بيت الله في التوراة في سفر التكوين[36]، وذلك عندما ذهب يعقوب الى حاران وبات ليلته في الطريق، لكنه استيقظ مفزوعا من نومه وقال:﴿ ان الرب في هذا الموضع وأنا أعلم...ما هذا إلا بيت الله-يقصد حجرا توسده-وباب السماء... ﴾، يشير هذا المقطع بوضوح الى أن يعقوب عليه السلام قد أقاما نصبا حجريا(بتيل).

وفي سفر الخروج[37] أشير الى الأعمدة الحجرية ألاثني عشر التي أقامها موسى عليه السلام في جبل الطور، فتذكر التوراة:﴿فكتب موسى جميع أقوال الرب، وبكّر في الصباح وبنى مذبحا في أسفل الجبل واثني عشر عمود ا لأسباط اسرائيل...﴾.

واعتبرت الحجارة مقاعدا للآلهة[38]، أو مساكنا للأرواح والجن، فقد ذكر بليني الأكبر[39] نقلا عن ميلا أخبارا عن تقديس سكان واحة سيوة لحجر كبير على مشارف واحتهم، معتقدين أنه إذا تجرأ أحد منهم على لمسه فإن ذلك سيؤدي الى قيام عاصفة رملية تهلك الواحة[40].

كما أورد أرنوب تقديس المغاربية القدماء للصُخور في شمال افريقيا في قوله:« أذا رأيت صخرة مصقولة ومهذبة بزيت الزيتون أضن أني وجدت القوى المقدسة، فأركع أمامها وأطلب منها أن تحقق أغراضي[41] »،كما أشاررونيهب(René Passet) الى حجر كبير في غليزان الحالية قرب مكان اسمه قرطوفة استعمل للتضحية وتقديم القرابين[42]، وترى العديد من الدراسات أن الانسان المغاربي القديم امن عند اتصاله بهذه الحجارة بتجند قسم من المقدسات التي تحتويها املا منها تأثيرات خيرة، كالشفاء من الأمراض والخصوبة عند النساء[43].

كما أشاركامبس (Camps)الى أن القوانش (Guanches) (بربر جزر الكناري) في جزيرة بالما يزورون دوريا صخرتين مقدستين (Tismar) و(Vimenya) ويسكبون عليهما بعضا من الزبدة والحليب وزيت الزيتون، ويصاحب ذلك انشاد لأغاني دينية حزينة في أجواء من الرقص[44].

اذن مما سبق يبدوا أن سبب تقديس وتبجيل المغاربي القديم للحجارة راجع أساسا الى نظرته لها كمأوى للمقدس وليس كمقدس، وهو بذلك يعبد الأرباب التي تسكنه وليس هو في حد ذاته، وتبعا لذلك فالحجر يستمد قوته وقدسيته من قدسية الرب الساكن فيه، ثم أصبح الحجر بعد مرور زمن معين موضع تقديس لذاته، وهو ما أضفى عليه صفات التطهير من الشر والمس وجلب الخصوبة، فكم من الناس سعوا ومازالوا للحصول على حجر من الأحجار المقدسة وذلك من أجل أن تحميهم وتبعد عنهم العين الشريرة.

د –تقديس المياه: كانت الأنهار والينابيع مكرسة لنوع من التأليه خاصة في بلاد شبه جافة كبلاد المغرب القديم لكونها ضرورية لإنبات الزرع وحياة الحيوان والإنسان[45]، كما اعتبرت هي أيضا مساكن للآلهة والأرواح.

وتتجلى الشعائر التعبدية المرتبطة بالماء في الاغتسال المرتبط بالمناسبات مع استعمال كبير للبخور، فقد أخبرنا القديس اوغسطين (354- 430 م) عن طقوس كان النوميديون يمارسونها منتصف كل فصل صيف، وعند حدوث الاعتدالين الربيعي أو الخريفي، تقضي باستحمامهم في مياه البحر عُراة من أجل التطهر والتخلص من أثامهم[46]، وكثيرا ما ربط المغاربة القدماء بين منبع النهر وبين روح جني تحميه سميت هذه الروح بـ (Genius) وقدمت لها قرابين وأضحيات[47]، هذا وقد بين المؤرخون ان العادات والخرافات المتعلقة بسقوط الأمطار ظهرت تقريباً في كل الأراضي شبه القاحلة بما في ذلك شمال إفريقيا خاصة بعدما بدأ المناخ يتغير في هذه المنطقة وهوما سبب حدوث الجفاف في بعض السنوات[48]، فقد كان المغاربة القدماء يتخيلون أن الارض تتزاوج مع السماء وتتلاقح بواسطة المطر الذي تبعثه السماء، فإن حدث ذلك جرت الأودية وسالت الى بطن الأرض لتنجب أنواع الحبوب والفواكه والخضر[49]، لذلك فقد قدسوا المجاري المائية وقدموا لها قرابين في مواسم معينة.

وقد استمرت هذه المعتقدات المرتبطة بالماء الى الفترة الرومانية، حيث عثر بيكار (Picard) على نقش مكرس لآلهة الماء عند تنقيبه في بئر ضامرفي قلعة دماد(Dimmidi-Castellum) جنوب الجلفة[50]، وفي مداورش(Madure) قدّس الاله ليليو (Lilleo) أوتيليلوا (Thililua) الذي يعني اسمه الماء[51].

ولا تزال بعض الطقوس التي تؤكد تأصل تقديس المياه قائمة الى اليوم في مناطق معينة من شمال أفريقيا، حيث تقوم النسوة في تابلبالة ببشار[52]وعند قبيلة تازناخت بالمغرب الأقصى[53] بصنع دمى مزينة بالملاعق تمثل (عروس المطر تاغنجة)، وثم تحمل هذه الدمى في موكب طقسي مصحوب بأغاني وأدعية وإلتماسات من مثل « أنزار أنزارياربأسويثإرازار » والتي تعني :«المطر المطرياربي اسقيها حتى الجذور»، طلبا للغيث والاخصاب[54]،كما أشار دوكريه(Decret) وفنطر (Fantar) الى بعض مراسيم الاستحمام المقدس التي تجري في منطقة الجريد بتونس، إذ تذهب نساء القبيلة الى

الواد قصد الاستحمام عند طلوع الفجر، ثم يقمن وسط أجواء من الغناء بتغطيس شعورهن وهن يرددن امانيهن[55].

و–تقديسالأشجار: إن ربط الخرق البالية من القماش غلى أغصان أشجارٍ يعتقد أنها مقدسة عادة عالمية، انتشرت كثيرا عند الساميين[56]، كما اعتبرت الاشجار الهة في العديد من الحضارات القديمة، ففي بلاد ما بين النهرين عرفت باسم تموز(Temuz)، وفي بلاد الاغريق سميت اتيس (Attis) وأدونيس (Adounis)[57].

كانت الاشجار مسكنا للمقدس من الهة وأرواح، ذلك أن المغاربة القدماء قد اعتقدوا أيضا بأن القوى الخفية قد حلّت بها، وقد مارسوا طقوس ربط الخيوط والخرق في أغصان بعض الأشجار املين في طرد الارواح الشريرة، كما حرّم ايذائها أو اقتلاعها أو إحراقها ومن فعل ذلك فإنه معرض لسخط الالهة التي تسكنها[58]، وعادة ما تم جمع الحجارة أو الأغصان حول جذعها لحمايتها.

كما قدست الاشجار نظرا لأهميتها الاقتصادية، أو بسبب كونها موجودة في مكان مقدس، أو أنها تخلد ذكرى بطل أو شخصية معينة مرت بجوارها أو استظلت بظلها،كما أنها ترتفع عمودياً نحو السماء المسكن المفترض للآلهة، وهي أيضا تفقد أوراقها وتستعيدها في ترميز إلى الموت والقيامة، ويجب أن نشير الى أنه يكفي سبب واحد أحيانا لتقدس شجرة ما، وكلما زاد عدد أسباب التقديس كانت الشجرة أكثر تقديسا.

هذا واختلفت انواع الاشجار المقدسة عند المغاربة القدماء، اذ نجد الزيتونة والكرمة والسدرة وشجرة الرمان والنخلة وغيرها من أشجار شمال افريقيا، فكثيرا ما ظهرت هذه الأشجار منقوشة على النصب الجنائزية أو الاهدائية كرمز للخصوبة أو للانتصار[59]،ويمكننا أن نعلل اختلاف الاشجار المقدسة باختلاف المنطقة الجغرافية التي تنمو فيها.

وتعتبر شجرة الرمان من اهم رموز للخصوبة، فسكان شمال افريقيا القدماء يكسرون ثمرتها على مقبض المحراث أو يدفنونها في أول خط حرث املين أن تكون سنابلهم بمثل عدد حبات الرمانة[60].

هـ– المقدسات الكونية: لفتت السماء نظر الإنسان القديم من كل جانب، بعظمتها وجلالتها، بشمسها وباقي كواكبها، وكل ما فيها، فأمامها ولد شعوره بالتصاغر والضعف[61]، كما عرف ما فيها من تأثير مهم في حياته وعمله، وفي محيط عيشه، وفي نمو واستمرار غذائه، وعزا إليها شفاءه

ومرضه، وأيقن ضرورة التقرب إليها، وتقديسها هي وباقي الأجرام الأخرى، إرضاءا لها، فبإرضائها ينال السعادة، والخير والبركة في حياته.

تعتبر إذن ظاهرة تقديس الاجرام السماوية، خاصة الشمس والقمر عادة دينية ضاربة في القدم، أعادها المؤرخون الى عهد سيدنا ابراهيم عليه السلام، فقد بين القران الكريم أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الشمس والقمر في سورة الانعام[62] حين قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ َ لَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وسكان المغرب القديمرأوا كغيرهم من الشعوب القديمة ان الشمس والقمر مصدر للحياة لهم ولأنعامهم، وكانوا يقدسونها ويرمزون لها بصور في أماكن عبادتهم[63]، ورغم أثار تقديس الشمس والقمر نادرة جدا في الفترة التي سبقت قدوم الفينيقيين، لكن حفظت لنا المصادر المادية بعض الصور لأشكال تمثل قرص الشمس أو النجمة وهي تزين بعض الحوانيت وبلاطات الدولمن، فكثيرا ما نجد نقوشا تمثل الشمس في غرف الموتى وأقبيتهم وحتى على الصخور المقدسة القائمة التي أشير اليها سابقا، وعثر أيضا في العديد من المرفقات الجنائزية الحجرية والنحاسية في شكل هلال[64]، وما توجيه الغرف الجنائزية نحو الشرق الا لقدسية الشمس لدى المغاربة القدماء[65]،كما وجدت العديد من المشاهد الصخرية في التاسيلي ناجر تدل على هذا التقديس[66].

وعادة ما يرمز لتقديس القمر بالهلال[67]،كما جسد برموز أخرى أهمها وأكثرها انتشارا قرني الثور والكبش[68]، وقد وجدت هذه الرموز في أغلب الجداريات المنتشرة في الاطلس الصحراوي مقترنة برسم الاله الكبش ذي هالة (bélier-à-sphéroïde) الاله الأكبر في تلك الفترة [69]، في زكار وعين الناقة بالجلفة ومنطقة افلو شمال الاغواط وقرب قسنطينة في تسغنة وخنقة بوحجار[70]، وتعتبر رسوم الجنوب الوهراني التي توجد على مسافة خمسة كلومترات غرب دائرة بوعالم بالبيض أحسن الرُسوم وأكثرِها وضوحا، حيث يظهر الكبش وهو يحمل على ظهره سرج مزين وحلية عريضة على العنق وفوق الرأس قبعة دائرية تمثل قرص الشمس المقدس[71].

توجد اسطورة قديمة تقول ان الكبش صعد ال جبل حتى وصل الشمس وبقيت هذه الاخيرة ملتصقة براسه لذلك كانت الشمس رمزا لكل مقدس أعلى[72]،كما عثر في مناطق اخرى من شمال افريقيا على مشاهد لحيوانات تحمل قرص الشمس أيضا، ففي ليبيا يقول محمد مصطفى بازاما:» لقد عثر على رسوم ونقوش لبقرات وثيران في مناطق عدة في الصحراء الليبية، تحمل بين قرونها دائرة لعلها ترمز إلى قرص الشمس، وإن جهلنا نحن الكيفية التي تم بها الربط بين الشمس وهذه الحيوانات...[73] » .

أما المصادر الكتابية فإن أقدم الاشارة هي إشارة هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد، فالليبيون حسبه لا يقربنون لأرباب سوى الشمس والقمر[74]، يقول هيرودوت:«تقدم القرابين للشمس والقمر من قبل جميع الليبيين ماعدا المقيمين منهم في جوار بحيرة تريتانوس»[75]. كما أكد بليني الكبير تقديس الليبيين للقمر والشمس وتقديم القرابين لهما[76] كما أشار ديديور الى تقديس القمر والشمس ايضا[77].

هذا وقد استمر تقديس القمر والشمس الى الفترة البونية والرومانية، فقد ذكرت لنا المصادر الكتابية عند استضافة ماسينيسا للقائد الروماني سكيبيوناميليانوسScipion-Emilianusتوجه الى الشمس شاكرا لنصرتها الرومان قائلا: «أتقرب اليك أيتها الشمس العالية جدا، والهة السماء الاخرى جميعا بعد أن وهبتي لي قبل أن أغادر الحياة، بأن أرى تحت سقفي وفي مملكتي كورنيليوس سيبيون[78]».

وذكرت النصب النذرية في الفترة الرومانية الاله يور (Iour) كإله للقمر[79]، كما أشار رونيه باسيه(Basset) الى النقش اللاتيني (Soli deo invicto) الموجه لإله الشمس بنواحي باتنة، كما أشار بن خلدون الى عبادة بعض القبائل البربرية للشمس والقمر في زمانه[80].

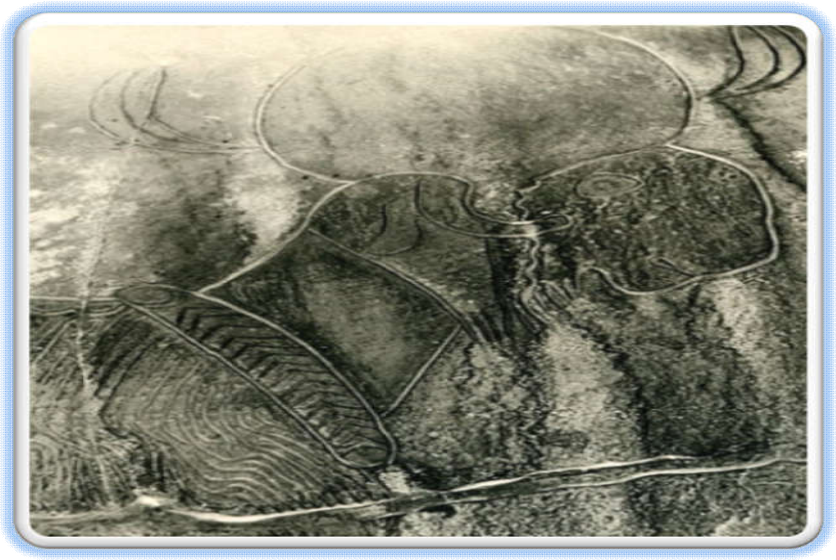

(الصورة4)كبش بوعالم زناقة ذو الهالة(قرص الشمس)
op.cit, p92.(1986) Aumassip G

الصورة1:ملاجئ صخرية بشيليا قرب قسنطينة

الهوامش:

1 - Gsell ST (1918) H.A.A.N, T3, p255.

2- فراس السواح (2002) دين الانسان دمشق:منشوراتدارعلاءالدين، ط04 ، ص24.

3 - طه الهاشمي (1963) تاريخ الأديان وفلسفتها، منشورات دار الحياة، بيروت، ص54.

4 - شنيتي محمد البشير(1984) التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع الميلادي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ص257.

5 - محمد الصغير غانم (2008) سيرتا النوميدية النشأة والتطور، دار الهدى، ص124.

6 - محمد الصغير غانم (2005) الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال افريقيا، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص68.

7- Toutain J (1920) les cultes païens dans l'empire romain‹paris: coll. Bibliothèque de l'école des hauts études sciences religieuses‹ édit E. Leroux‹ p46.

8 - التاسيلي ازجر: مستمدة من النطق المحلي بالتماهاق، وهي تعني السلسلة الجبيلية التي يغطيها السواد، أما ازجر فهي تعني جلد الثور المسلوخ أو رأس الأقرع انظر: Leredde C (1957) Etudes Ecologiques et Phytogéographie de Tassili et Nil‹ Travaux de LIRS‹ p47.

9 - بن بوزيد لخضر (2010) الاثر الديني في مشاهد الرسوم الصخرية لمنطقة تاسيلي ازجر خلال مرحلة ذوي الرؤوس المستديرة - 2500/800 ق.م، الجزائر: مذكرة ماجستير، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، ص 48.

10 - انحاز أطلس Atlas ضد الالهة فغضبت الالهة وشكته الى زيوس الذي عاقبه بتحويله الى جبل؛ انظر: محمد العربي عقون (2008) الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ص74.

11- Basset R) 1910 (Recherches sue les religions des Berbères, revue de l'histoire des religions, p02.

12- Pline Lancien (1950) L'histoire Naturelle, trad Beaujeu .J, paris : édit Hachette, T1,liv V.

13 - محمد الصغير غانم (2005) المرجع السابق، ص69.

14- Basset R (1910) op.cit, p04.

15 - مارسيا الياد (1986) تاريخ المعتقدات والافكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس، سوريا: دار دمشق للنشر، ج1، ص 26.

16 - نصر الدين بن الطيب (2008) تاريخ الفن من العصر الحجري الى العصر الغوتي،منشورات الريشة الحرّة، الجزائر، ص26.

17- Gsell ST(1921) H.A.A.N‹ T1, pp. T1, p256.

18 -محمد الصغير غانم(2008) المرجع السابق،ص137.

19-LhoteH (1976) Vers d'autres Tassili, nouvelles découvertes au Sahara, paris : édit Arthaud, 2°edit, p92.

20- Saoudi N-E (2002) Les temps Préhistorique En Algérie, Alger : édit Dalimen, p78.

21- Jean Clottes(2004) «L'Art Rupestre et la Chamanismes" les lettres de clio, www.clio.fr

22 - Bavois AG(1939) Manuel…, op-cit, p307.

23 - خزعل الماجدي (1999) الدين المصري، الاردن، دار الشروق، ص146

24-Basset R (1910) op.cit‹ p05.

25- Ibid, p8.

26- Gsell S) 1927 (H.A.A.N T5, op.cit, p140.
27- Basset R (1910) ibid, p07
28- Benabou. M (1976) La Résistance Africaine à la Romanisation, paris : éd, Maspero288.
29- Basset R (1910) ibid, pp07-08.
30- Toutain J (1920) op.cit, pp47- 49.
31- Benabou M(1976) op.cit,p272.
32- Claude R) 2003(«Socio-anthropologie des religions", paris : édit Armand Colin, p23

33 - مصطفى أعشي (2010) الاحجار تشخيص للمقدس «، مجلة توالت الثقافية الالكترونية، www.tawalt.com.

34 - جيهان ديزانج (1985) البربر الاصليون«تاريخ افريقيا العام، مجلد02، باريس:دار النشر جون أفريك ،اشراف جمال مختار،ص446.

35 - البتيل Bétyle: كلمة سامية مركبة من "بت" التي تعني البيت، و"يل" وتعني الاله، عند جمعها تعطينا معنى "بيت الاله" انظر: محمد الصغير غانم (2008) المرجع السابق، ص134. ابن منظور (1968) المرجع السابق، مجلد 11، ص40

36 - فتيحة فرحاتي (2007) نوميديا من حكم الملك جايا الى بداية الاحتلال الروماني 213-46ق.م، الجزائر: منشورات أبيك، ص296.

37 - الشاذلي ب وطاهر م (1999) قرطاجة البونية، ص286.

38 - التوراة: سفر التكوين الاصحاح الثامن والعشرون، فقرات 11-13-15.

39 -التوراة: سفر الخروج، الاصحاح الثالث، فقرات 13-14.

40 - Basset R) 1910 (op.cit, p01.
41 - Pline Lancien, liv2, chap45.
42 - Mêla P) 1843(Géographie, liv1, chap8.

43 - مصطفى أعشي (2010) المرجع نفسه، www.tawalt.com

44- Basset R (1910) op.cit، p06.

45 - محمد الصغير غانم)2005 (المرجع السابق، ص66.

46- Camps G) 1980(Berbères aux marges de L'histoire، Ed. Des Hespérides،paris، p196.

47 - محمد الصغير غانم (2008) المرجع السابق، ص138.

48- جيهان ديزانج (1985) البربر الاصليون، مجلد 2 من تاريخ افريقيا العام، ص446.

49- Basset R (1910) op.cit، p09.
50- Benabou M (1976) op.cit, pp290-291.

51 - محمد الصغير غانم (2008) المرجع السابق، ص141.

52- Picard G.CH(1947) CastillumDimmidi, paris : édit E de Boccard, p127.
53- Benabou M(1976) ibid, p275.

54 - محمد العربي عقون (2008) المرجع السابق،ص239.

55 – أعشي (2010) ظاهرة أدبخو نتاشورت بقبائل تازناخت وتقديس الماء والنار عند سكان المنطقة،مجلة توالت الالكترونية www.tawalt.com،يوم 22-12-2010.
56 - Doutte E (1908) Magie et religion dans l'Afrique du nord، Alger: édit Jorfan, p584.
57- Decret F &Fantar M (1982) L'Afrique du nord dans L'antiquité، paris: édit Payot، pp 244 -245.
58 – محمد الصغير غانم (2005) المرجع السابق، ص71.
59 – محمد الصغير غانم (2005) المرجع السابق، ص131.
60- Berthier A& Charlier L (1955) Le sanctuaire punique d'Al Hofra à Constantine, 2°vol،paris: édit Arts et Matières Graphiques، p181.
61- Basset R) 1921 (Les influences punique chez les Berbères, RAF, v62, p340.
62 – الهاشمي طه (1963) تاريخ الأديان وفلسفتها، بيروت: دار مكتبة الحياة، ص73.
63 – القران الكريم: سورة الانعام، ايات76-77-78.
64 – محمد علي دبوز (1964) تاريخ المغرب الكبير، ج1، ط1، مطبعة عيسى البابي وشركائه، ص69.
65 – عزيز طارق ساحد (2009) التعمير البشري ببلاد المغربي فترة فجر التاريخ، رسالة دكتوراه معهد الاثار، ص406.
66- Savary JP (1969) L'architecture et l'orientation des dolmens de Beni Messous (Région d'Alger) , Libyca, t. XVII, p. 321.
67- Lhote H (1976) op.cit, p92, Fig49.
68 –سباتينو موسكاتي (1998) الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب، بيروت: دار الرقي، ص284
69-Ryckmans G (1951) Les Religions Arabes Pré -Islamique, éd2, Louvain, p 9.
70–حارش محمد الهادي (1988)» أصول عبادة امون في المغرب القديم «، الجزائر: مجلة الدراسات التاريخية، ع04، ص11.
71- Gsell S (1972) H.A.A.N, T IV, p286.
72- Decret F &M Fantar (1991) op.cit, p254.
73- Mircea E (1964) Traite d'histoire des religions, paris : pp119.
74 – محمد مصطفى بازمة (1973) تاريخ ليبيا في عصور ما قبل التاريخ،،بنغازي ص235.
75- Hérodote, IV ,188
76 - ibid.
77- Pline l'ancien, II, 103.
78- Diodore de Sicile, III, 57.
79- Camps G (1987) op.cit., p200.
80 – محمد العربي عقون (2008) المرجع السابق ، ص215